توفيق الحكيم

للدكتور حلمى بهجت بدوى

لشبابنا المثقف شكوى تواضع على صيغتها على اختلاف ألوان ثقافته ، وتلك الشكوى هى نقص الغذاء الفكرى فى الحياة المصرية . وقد كان لتبين وجه هذا النقص آثار بغيضة ، فهو أولاً منتشر فى النفس فى مزيج من السأم والتشاؤم ، وهو على أى حال باعث فى العزيمة خوراً وفى الهمة فتورا ، وهو بعد ذلك — وهناوجه السوء — دافع الى المغالاة فى التقدير . إذ كثيراً مايصيب الصيغة الصحيحة هرى من النفس فتظل فى عرف الناس صادقة على مدى الزمن وان تساقط بعد ذلك وجه الصواب فيها .

وكان من أثر هذا النقص أن نظر الشباب إلى الجانب الفكري من الحياة المصرية فخيله مستنقعا آسناً ، فانصرف عنه اما إلى الحياة المادية وما فيها من لهو وعبث ، واما إلي مصدر ثقافته مستعيناً بالكتب والمجلات الأجنبية .

فلم يكن غريباً بعد ذلك أنه كلما بدا وميض من النور فى حياتنا الفكرية لم يلق إلا أعيناً مغمضة ، وإذا أينع زهر صغير صادف برداً فذبل والتوى .

أزمة الغذاء الفكرى شر اذن ، إنما شر منها روح التشاؤم الذى فشا فى هذا الشباب المثقف ، وكلمة السر التى جرت على الألسنة فى سهولة عجيبة من أنه لاسبيل إلي تلمس هذا النوع من الغذاء فى الانتاج المصري والتي تنتهى إلى قتل العناصر السليمة التى قد تنهض لتغذية حياتنا الفكرية .

وإذا أنا ذكرت الانتاج المصرى فانى أرسل هذه الكلمة على معنى خاص . فانا أستبعد الترجمة لأنها ليست إلا وسيلة لتغذية من كانت ثقافتهم عربية محضة ، أو لتهيئة الاتصال بين ثقافتين مختلفتين . وأنا أستبعد كذلك النقد لكى أستبقي بعد ذلك صورة واحدة ، هى الخلق Création

وإذا أنا استبعدت النقد فليس ذلك لأنني أخرجه عن معنى الانتاج ، أو لأننى أتمثله ضعيف الشأن فى تموينا بالغذاء الفكرى ، وانما استبعده لأنه مرهون بالخلق ومن أجل ذلك كان النقد الذى أينعت أثماره فى مصر هو ذلك النقد للانتاج الأوربى وللانتاج العربي القديم . أو ذلك النوع من النظرات العامة التى تتلمس أوجه النقص والكمال فيما لدينا من انتاج لترسم صورته الحقيقية جميلة كانت أو قبيحة .

* * *

وقد ظهر أخيراً كتاب أهل الكهف لتوفيق الحكيم وهو من نوع الانتاج الذى أقصده . ولا أذكر كتاباً قابله النقد فى مصر بعناية وتقدير بمثل ماقوبل به هذا الكتاب . ولست أتعرض هنا لنقده بعد أن وفاه حقه الدكتور طه حسين والأساتذة مصطفى عبد الرازق والمازنى وهيكل بك ومحمد على حماد وغيرهم من فضلاء الكتاب .

ذلك أن مؤلف أهل الكهف صديق وربما كان تقدمى لنقد كتابه — والأمر كذلك — مثيراً لريبة مشروعة . وهل هناك من شك فى أننى سوف أحيط كتابتى باطار من العطف الذى تبرره شريعة الصداقة ، أوليست الصداقة فى بعض وجوهها نوعا من التعاون الخالص وضرباً من التنابذ فى سبيل النجاح !

وإنما حلا لى أن أكتب عن تاريخ حياة هذا الكتاب . وقد قدرت فى تلك الصداقة التى كانت تلقى الريبة على نقده تزكية لاغبار عليها للكتابة عن تاريخ حياته ، وما تاريخ حياته إلا وجه من تاريخ حياة مؤلفه ، وقطعة من شخصيته لعلى أجدر الناس بالكتابة عنهما .

* * *

منذ عشر سنوات خلت كان توفيق الحكيم طالباً فى مدرسة الحقوق ومؤلفا مسرحياً ملحقاً بمسرح حديقة الأزبكية ، وقد تقدم إلى هذا المسرح بروايات عدة بعضها مؤلف وبعضها مقتبس عن المؤلفات الأوربية . وقد قرأت هذه الروايات فى ذلك الوقت وكنت عندئذ هاوياً لكل مايتعلق بالمسرح . وكان من بين هذه الروايات رواية مؤلفة عنوانها « المرأة الجديدة » وموضوعها مشكلة المرأة فى الجيل الحالى . وقد لاقت هذه الرواية من النجاح مالاقت ، وقد يكون دون ماتستحق وقد لايكون ، وقد لايزال توفيق الحكيم ينظر إلى رواياته الأولى بعين لا تخلو من الحنو والعطف ، وقد يكون هذا الشعور مفهوماً من جانبه ، أوليست أعمال الشخص كأطفاله اذا حظى السليم منها بالحب اختص العاطل منها بالعطف والحنان !

وكنت أنظر حينئذ إلى توفيق الحكيم بعين الأمل ، ذلك انني كنت أراه منصرفا إلى فنه تمام الانصراف ، فى إخلاص وإيمان ، شاعراً بأن هذا الفن يجرى فى دمه ، وهو لم يشعر بذلك شابا فقط . وإنما هو هم احتواه صبياً فراهقا . فهو لايعيش إلا

من أجله ، ولا يفكر إلا فيه . وإذا اطمأن اليك مرة فحدثك عنه أدهشك ذلك الحماس الذى ينبعث منه ، وتلك النشوة التى يغرق فيها إلى آذانه فتأخذ بلبك وبلبه .

من أجل ذلك كنت أنظر اليه بعين الأمل ، ولكن لم يكن أملى فيه محدداً بل كان أملا غامضاً لعل مصدره ما فى الشباب من صحة وثورة وتفاؤل ، وعلى أي حال لم أكن آمل فى نجاحه الا من ناحية الكتابة الفكهة ، وقد بعث هذا فى نفسى روايته «المرأة الجديدة» ، إذ كتبها وهو يقصد عين الجد فاذا به أصاب دعابة لذيذة ، وكنت ألمح في دعابته نوعا من العمق لم أكن متيقناً منه ، وإنما كنت أحس به وأنا بين المصدق والمكذب .

* * *

إلى ان سافرنا منذ ثمانى سنوات إلى باريس بعد انتهائنا من دراسة الليسانس ، وكان المقصود من سفرنا دراسة دكتوراه الحقوق

وبهرنا عند وصولنا ازدهار الفن والادب فى باريس ، وظهر لنا جلياً ناطقاً محدداً ذلك الجانب الروحي والفكرى من الحياة الذى حرمنا من نعيمه فى مصر ، كيف أينعت أزهاره فى هذا البلد ، كيف كان دانى القطوف ، عجيب الالوان ، شهى الرائحة . ويدرك من يتذوق هذا الجانب من الحياة كيف يحلو الرى بعد هذا الظمأ والامتلاء بعد طول الطوى . فهل كان من المعقول أن يعيش توفيق الحكيم فى باريس وهى مهبط الفن والادب ، وأن يمر بهذا الفن والادب وفى دمه ذلك الحماس ، وفى روحه ذلك الخلوص والانصراف فلا ينهل من الفن والادب إلا بقدر ماينهل الناس لمجرد الغذاء الفكرى ؟

ما مضت بضعة أشهر على إقامتنا فى باريس حتي بدأت أنظر اليه بعين ملؤها الاحترام . . . الاحترام الغامض أيضا .

ذلك أنى رأيته وقد انصرف عن اللهو وعما يحصل كل شاب من باريس عادة ، عن باريس اللاهية ، عن باريس الضاحكة الماجنة ؛ انصرف عن كل هذا بنفس آمنة مطمئنة . وإذا به وأحياء باريس عشرون حيا يبدأ أولها في مركز المدينة وينتهى آخرها بأطرافها يسكن الحي العشرين ، وما أظن مصريا قد هبطت قدمه إلى هذا الحي غير توفيق ، ومن كان يفكر فى زيارته من أصدقائه .

* * *

قرأ كتاب تين Taine عن فلسفة الفن فانبثق له من هذا الكتاب قبس من نور ، فتعلق به وقد شعر أنه باستهوائه اياه لابد واصل الى استكمال تثقيفه ، والى ادراك مكنونات الفن أسراره ومنعطفاته . وانكب على دراسته انكبابا . والكتاب يتحدث عن فن التصوير والنحت أكثر مما يتحدث عن غيرهما ، فهو ذاهب اذن لزيارة متحف اللوفر فى زيارات دورية ، وقد أصبح له هذا المتحف بمثابة الجامعة للطالب . وهو مصطحب هذا الكتاب كصديق مرشد . وهو متثبت من مطابقة التدليل البديع الذى يجرى به قلم تين عن كيفية نشوء فن ما ، في بيئة ما ، على تلك المجموعة التى لاتقدر من كنوز الصور فى متحف اللوفر . وهو قد قرأ الكتاب واستوعبه استيعابا وهضمه هضما ، ثم شاهد كيف استخلص تين حياة هذه القطع الفنية من جنس الفنان والوسط الذى أحاط به والوقت الذى ظهرت فيه .

ولكن أنى له أن يفهم فن التصوير فهما واعيا ، وثقافتنا المصرية فى هذا الشأن معروفة ! ان كتاب تين ليس الا خلاصة محاضرات كان يلقيها على طلبة مدرسة الفنون الجميلة فى باريس ، فهو يتقدم به الى أناس على قدر متقدم من الثقافة الفنية ، وقد شعر توفيق بعد قراءته للكتاب بالنور يبهره ، فادرك أن هناك جمالا لم يكن يحس بوجوده قبل ذلك وعالما آخر تراءى له ولكن فى اطار من السحب والغيوم . وأحس فى الوقت نفسه أنه لم يدرك كنه هذا الجمال بعد ولم يدخل هذا العالم الجديد .

وكان أن عرضت له فرصة يتعجل بها سد هذا النقص الذى كان يقض مضجعه ، فلم يتردد فى التعلق باهدابها ، فهو قد تعرف فى ذات يوم الى شاعر فرنسى أخنى عليه الفن والادب ، ولعله البقية الباقية من جماعة البارناسيين Parnassiens من مذاهب الشعر ، فرأى فيه توفيق رجلا مثقفا ثقافة واسعة ، ذا مكانة فى الأدب والشعر ، وان جار الزمان عليه وعلى مذهبه . فجعل يمد هذا الشاعر البائس باعانة مالية نظير استعانته به فى فهم أسرار اللوفر ومتحف رودان والمكتبة الاهلية .

ثم انكب على القراءة انكبابا ، ولكن الانتاج الاوربى هائل فيه الغث وفيه السمين ، والى جانب الانتاج الحديث يوجد الكلاسيك وهو لايقل هولا ، والوقت من ذهب ، لابد اذن من ان يختار مايقرأه من بين هذا كله ، وهو شاعر بالمراحل الواسعة التى لابد له من قطعها ليستعيض عما ضيعه من ايام شبابه فى قراءات كان يتخبط فيها دون هدى او مرشد ، وهو يستعين اذن بصاحبه الفرنسى فى هذا الاختيار ، وهو يستمع اليه فى دروس خاصة منظمة ، جعل صاحبه يعارها له كما يعاير الدواء للمريض ، واذا به الآن قوى البنية بعد هذا الهزال الطويل ، عبل الذراعين بعد هذا الضعف والتهالك .

وهو لايكتفى بعد ذلك بالتهام الكتب واستيعابها ، وإنما هو

يجعل من قراءاته اداة للتأمل والتفكير . فهو يركن الى الوحدة في غالب أيامه يهضم فيها ما قرأ ، وهو يجلس في قهوة نائية وقد فتح امامه كتاباً ذراً للرماد في العيون ، ثم يظل يسبح في بحر خياله وهو مغتبط بهذه الوحدة كبير بها ، وكانه قد أدرك قول ابسن : « ان الرجل الوحيد المنفرد هو الرجل القوى » .

وكنت دائماً أتلقى ثمرة ذلك التأمل الطويل ، فهو يغيب عني اسبوعين او ثلاثة ثم يزورني فاجلس اليه ساعات متوالية ، لاينقطع فيها حديثه ، وهو دون شك قد اختار موضوع هذا الحديث قبل حضوره . ودون شك كان هذا الموضوع شاغله الوحيد في هذه الأسابيع الماضية ، وإذا بي أمام محاضرة طويلة عريضة ... متشعبة ، ولكنها مبوبة تبويبا كاملا ، مرتبة ترتيباً بديعاً . وإذا لها خاتمة تلم بأغراضه ، وإذا بي غارق في نشوة صافية ، وإذا أنا مفكر في هذا الموضوع وذاك الحديث ، لا في أثناء انصاتي اليه فقط بل بعد انصرافه عني أيضاً .

أنصرف في حين ما إلى قراءة ما كتب عن قدماء المصريين وعن روحهم العميق ، وإذا هو شاعر بمصريته العريقة كيف هي تتمشى في دمه ، وإذا هو محدثك عن هذا الروح في فخر وإدراك لا في مجرد زهو ونعرة ، وإذا أنت يهرك هذا الافضاء ويتملكك نوع من الحماس ، وتتكشف لديك آفاق جديدة ، وتتحلل في ذهنك ألغاز كنت تحار في تعليلها أو كنت تعللها تعليلا غامضاً ، وإذا الأمل الذي كان يدب في نفسك دبيباً مبهماً في مستقبل مصر ، وفي روح مصر قد تحدد لديك تحديداً كاملا ، لأنك تشاهد النور بعد أن حجبه عنك ستار ، وتلمس الحقيقة بعد ان كانت وراء حجاب ، وتشعر بما في روح مصر من عبقرية خاصة ، بعد أن أدركت أسبابها فلم يصعب بعد ذلك أن تأمل فيما تؤدى اليه من ثمرات .

وهو لم ينس المسرح — فنه العزيز عليه — في وسط هذا كله ، فهو يشاهد التمثيل من الكوميدى إلى الأوديون إلى مسارح البولفار إلى مسارح الطليعة Avant Garde ، لايدوكه ملل ولا سأم ، وهو لايذهب لمجرد اللذة الفكرية ، بل أيضا للدرس والوعي . وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وتلك النار المقدسة تنفخ في صدره وتوطد من عزمه لاتدركها هوادة ولا خمود !

ويدهشك بعد هذا أنه في يوم ما منصرف عن هذا كله ، عن قراءاته وعن مسارحه ، عن اللوفر ورودان وبقية المتاحف ، وإذا به يشغله شيء واحد : الموسيقى ، ماذا ؟ توفيق الحكيم الذى كان يكاد يشترك في تلحين رواياته الموسيقية في مصر ، توفيق الحكيم الذى كان مولعا بالموسيقى الشرقية ، غارقا وراء أسرارها يستمع الآن الى الموسيقى الغربية ؟

لقد أدرك معنى ، أنها إحدى الفنون السبعة ، فهو الآن منكب على دراستها انكباباً ، ولا بأس أن يستعين باصدقائه الفرنسيين على فهمها ، وهو منصرف الى الأوبرا والأوبرا كوميك والى صالات الموسيقى السمفونية ، ولا بأس من أن يذهب الى الأوبرا ولو لم يقتدر الا على أعلى التياترو ، ولا بأس من أن يتسلل بلباسه الغريب المتواضع على درج أوبرا باريس الفخمة ، ومن بين أزياء المساء الفاخرة ولألاء الجواهر الثمينة !

واذا به يتدرج كالطالب في المدرسة ، فهو معجب أولا بسان سانس وبيزيه وموسيقاهما ذات النغم الشرقي ، ثم هو منتقل بعد ذلك الى الاعجاب بيتهوفن وموسيقاه الرومانتيكية ، وهو بعد ذلك مشيد بذكر فاجنر وموسيقاه القوية ، وهو أخيراً يستمع الى موسيقى استرافسكى وغيره من المحدثين .

سألته أخيراً المكاتب الفني لأحدى الجرائد المصرية عما أوحي اليه بأهل الكهف ، فكاد ينطلق لسانه باسم بيتهوفن ، وقد قص عليّ هذه الحادثة فلم أملك نفسي من الابتسام .

— ولماذا لم ينطلق لسانك ؟

فكان رده الذي كنت أتوقعه والذي من أجله ابتسمت :

— يضحكون مني !

وهو في وسط هذا التموين الهائل الذي كان يمون نفسه به أخذ — ومن ساعة متقدمة — يحاول الانتاج ، فجعل يزاول الكتابة بالفرنسية ، فكتب قطعاً من الحوار وجعل يعرضها على بعض أصدقائه الفرنسيين ، ولم يثن عزمه عن الكتابة المامه الابتدائى بالفرنسية ، فهو مثابر مجد على رغم ذلك ، وهو في النهاية قد عثر على صيغته ، واذا بأصدقائه الفرنسيين يشهدون له بأنه في توجيه الحوار واسع الحيلة ، واذا بعضهم يذكر عند قراءته لتوفيق بورثوريس الكاتب الفرنسي الشهير وحواره المقتضب المتماسك .

* * *

وكنت أراقب هذا النماء عن قرب مغتبطا به ، سعيداً بمشاهدتي هذه الثمرة كيف غرست ، ثم كيف نمت ، ثم كيف ترعرعت وأينعت ، ولم ينشأ شعوري بهذه السعادة عند ما نشر كتاب أهل الكهف ، وعند ما استقبله النقد هذا الاستقبال العظيم ، وانما هو قد نشأ من زمن بعيد ! عند ما قرأت « اهل الكهف » مخطوطة منذ ثلاث سنوات قبل أن تتخاطفها أيدى المدرسة الحديثة ، بل عند ما قرأت « شهر زاد » مخطوطة منذ أربع سنوات ، لما ارسلها إلى توفيق في

باريس بعد عودته الى مصر ولما حملتها راكضا الي الدكتور ماردروس (وهواديب فرنسي ترجم الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية ، وزوج مدام لوس دلارو ماردروس الكاتبة الفرنسية المعروفة) ليقرأها وليري من أي زاوية نظر مؤلف مصرى الى قصص ألف ليلة وليلة .

بل شعرت بذلك منذ خمس سنوات عند ما كنت أقرأ أولا بأول الصفحات الأولى من رواية « عودة الروح » عند ما كان مؤلفها يحاول ترجمتها الى اللغة الفرنسية .

عند ذلك كله تحدد أملى فيه بعد أن كان غامضا ، وتبدد ذلك التشاؤم الذي كنت أنظر به الي جونا الفكرى ، وأدركت ان لدينا مؤلفا نفاخر به المؤلفين الأوربيين نقرأه فى لذة واعجاب ، اعجاب بهذا المنظار الخاص الذى ينظر به الى الأشخاص والأشياء والحوادث فيكتشف فيها نواحى فذة .

نعم . فقد تمر أمامنا الحادثة لانفكر فى أن نعلق عليها اهمية خاصة . . ولكنها تستوقفه فيناقشك فيها . ويبدأ يصور لك فيها تصويرا غريبا ، فاذا هى امتدت ، واذا هى ذات جسم وكيان ، واذا بها نواح من الاهمية بمكان ، واذا أنت دهش بعد ذلك كيف مرت عليك ولم تلحظ فيها كل ذلك .

كنت أتحدث مرة الى أحد أصدقائنا عن روايات توفيق الحكيم ، وتسلسل الحديث الى أن ذكرت لمحدثى أن توفيقا قد كتب رواية اسمها « الخروج من الجنة » ، فكان رده علىّ :

ـــ وطبعاً شخصيات الرواية ثلاث : آدم وحواء وابليس !

فلم أتمالك من الابتسام ، ذلك أن عنوان الرواية ليس الا رمزا وأن أشخاص الرواية عصريون فليسوا آدم وحواء ، وانما هم محمود واقبال وغيرهما من أبناء آدم وحواء .

وقد ابتسمت لقول صاحبى لأنه لفظه فى اطمئنان عجيب ، وسر اطمئنانه أنه قد قرأ « أهل الكهف » ورأى كيف استخلص مؤلفها تلك القطعة الفلسفية من القصة التى لايجهلها مصرى وقرأ « شهر زاد » فرأى ثمرة التأمل الذى اوحت به قراءة الف ليلة وليلة الى صديقنا توفيق ، فاذا هو كتب رواية بعنوان « الخروج من الجنـــة » فهو لاشك قد عالج خروج آدم وحواء لأن هذه الحادثة قد استوقفته ، ولابد انه قد نظر اليها من زاويته الخاصة فصبها رواية مسرحية !

خرج صاحبنا من مجرد عنوان الرواية ومن ان مؤلفها توفيق الحكيم بهذه النتيجة التى يراها طبيعية ، وهو حريص على ان يكون استنباطه لتلك النتيجة من تلقاء نفسه ، فهو لايسأل عن اشخاص الرواية وانما هو يبادر بذكرهم من تلقاء نفسه ، شأن من فهم روح مؤلف أهل الكهف !

* * *

بهذه الموهبة الفذة وبهذه الثقافة الشاملة وهذا المجهود الجبار يتميز توفيق الحكيم ، فهو قد أدرك أن الأدب ليس مجرد سليقة نطلقها فتنطلق ، أو الهاما يوحى الينا به فنرسله على طبيعته ، وانما هو الى جانب ذلك وقبل ذلك علم ودراسة ، لابد فيهما من المثابرة على القراءة ، والانكباب على المذاكرة ، والالمام بجميع نواحي الفنون ، والتأمل فى كل مانقرأ ونشاهد .

وكتاب أهـــل الكهف الذى لاقى مالاقاه من نجاح لدى النقد فى مصر ، والذى لاأشك فى أنه سوف يستقبل استقبالا عظيما لدى النقاد الأوربيين اذا ما ترجم اليهم ، هـذا الكتاب اذن لم يكن ثمرة مصادفة ، لم يكن زهرة صغيرة أينعت فى المستنقع المصري وانما هو دوحة هائلة غرسها غارس ثم تعهدها بالصيانة والتهذيب

* * *

وبعد ، فانى أدرك أن مقالى هذا قد يرسم على الشفاه ابتسامة ذات مغزى !! « هو صديق يقوم بالدعاية لصديقه » .

ولأمر ما ، يهمني أن أرفع هذا الخطأ المحتمل ، فان مؤلف « أهل الكهف » وكتابه ليسا فى حاجة الي دعاية بعد أن أجمع النقاد على تقدير الكتاب .

وانما حاولت ان أرسم صورة لتاريخ حياة الكتاب بأن قدمت صورة من تاريخ حياة مؤلفه ، أظهر بها جانباً هيأت لى الصداقة التى تجمعنى ومؤلف هذا الكتاب أن ألم به ، فآثرت أن يطلع قراء الكتاب على هذا الجانب .

وربما كان لى غرض آخر من هذا المقال : هو ان يدرك شبابنا المتأدبون أن فن الأدب لايكتفى فيه بالموهبة ، أو بالاعتقاد فى تلك الموهبة ، ثم ارسال القلم فى كتابات لاتقدم خطوة واحدة ، وانما هو الى ذلك اطلاع وتأمل ، لافى الشعر والنثر بأنواعه فقط ، بل كذلك فى النحت والتصوير والموسيقى ، ولافى الانتاج العربى وحده ، بل كذلك فى الانتاج الأوربى ، ولست احاول ان أرسم بهـــذا خطة ، فالخطة مرسومة مقدما ، بل هى بديهية من البديهيات ، وانما قصدت لفت النظر .

فاذا أتي اليوم الذى نري فيه شبابنا المشتغلين بالادب قد ادركوا هذه الحقيقة كنا سعداء : توفيق الحكيم ، وكاتب هذه السطور وكل من يجرى فى دمه الاخلاص لهذا البلد المنكود بكل ما تحتويه كلمة الاخلاص من معنى ؟